النشاط الثقافي في العالم

الاتحاد السوفياتي

رسالة من برهان الخطيب
نجيب محفوظ في موسكو

ترددت كثيرا قبل طرح هذه الفكرة على معهد غوركي الادبي في موسكو ، ذلك لان مزاج الشبيبة هذه الايام ، في كل مكان تقريبا ، ثوري رافض حاد ، يكادون في ثورتهم ورفضهم هذا ان يضيعوا الكثير من القيم والتقاليد الحسنة التي خلفها لنا الاقدمون . ليس « المزاج الرافض » ما كنت اخشاه طبعا ولكنه سوء الفهم الناتج عن تخلخل الثقة التي عقدناها سابقا مع التراث القديم ،هنا لا يسلم دستويفسكي ولا تولستوي ولا تورجينيف من النقد والانكار ، فكيف بكاتب لم يسمعوا باسمه بعد « رغم اهمية هذا الكاتب : نجيب محفوظ » وعلى الرغم من كونهم طلبة معهد ادبي والكثير منهم قد قطع شوطا بعيدا في طريق الادبوحرفة الكتابة ، فمن بين طلبة هذا المعهد تجد مهندسين وضباطا واطباء وجيولوجيين تركوا معاملهم ومختبراتهم وادواتهم وجاؤوا للجلوس على مقاعد الدراسة كتلاميذ يحملون مجددا الاقلام والدفاتر المدرسية ليدرسوا تاريخ ثقافة وادب العالم كله خلال خمس سنين ضمن برنامج دراسي اعد على مستوى حرفي كبير يشرف عليه اتحاد الكتاب السوفيات لاعداد كادر ادبي مزود بمعرفة شاملة تساعد على عملية الخلق بشكل مبدع اصيل .

من ضمن برنامج هذا المعهد عقد ندوات دورية لمناقشة نتاج الطلبة انفسهم والنتاجات والاصدارات الادبية الجديدة التي تطرحها دور النشر السوفييتية في الاسواق كل يوم ، وبذلك يجري التعرف على ابداعات الكتاب في حينها ومواكبة التطور النامي في الحركة الادبية. وعندما سألت بعض طلبة المعهد عن مدى معرفتهم بواقع الادب العربي المعاصر وجدت ان اغلبهم يفتقد صورة واضحة عما يحدث عندنا ، لذا قررت تقديم احد الكتاب العرب واقترحت ادراجه ضمن برنامج المعهد لمناقشة احد اعماله على الاقل في الندوات التي تعقد لهذ الشأن . وقد حظيت هذه البادرة بتشجيع نائب عميد المعهد الكسندر ميخائيلوفج كالانوف .

عثرت في عدد قديم من مجلة « الادب الاجنبي » الصادرة في موسكو على ترجمة « اللص والكلاب » لنجيب محفوظ منشورة في عددها الرابع من عام ١٩٦٤ . وكان ان عقدت ندوتان في المعهد لمناقشة هذه القصة استمرتا اربع ساعات طرح فيهما العديد من الاراء والافكار الممتعة ، فتبدد ترددي وخشيتي حالما حمي النقاش واتضح ان كاتبنا العربي قد اجتاز حدوده فعلا وان « المزاج الرافض » الذي يتعامل به الطلبة مع كثير مما يقرأونه اليوم لم يؤثر على تقبلهم واستمتاعهم بفن كاتبنا نجيب محفوظ . وادناه نص ما جاء في الندوتين ، قام الزميل بوجيدار الطالب البلغاري في المعهد بتسجيله اختزالا ثم قمت بدوري بترجمته من الروسية الى العربية .

افتتح الندوة نائب عميد معهد غوركي الكسندر ميخائيلوفج كالانوف

كالانوف : نجيب محفوظ من اكبر الكتاب العرب الاحياء ، اعماله الفنية تتميز بروح معادية للاستعمار وتحمل رواياته طابع الاحتجاج الاجتماعي في مرحلته المبكرة الاولى . ولكن قبل الخوض في موضوعنا حبذا لو ذكر لنا الصديق برهان الخطيب فكرته الخاصة ونظرته الى الكاتب وفصته هذه موضوع النقاش .

برهان : اود لو سمحتم ان تكون مشاركتي في هذه الندوة هي الاستماع اليكم فقط رغبة مني لان تكون علاقتكم بالكاتب مباشرة من خلال نتاجه وحده وبذلك تكون الاراء خالصة تماما . وفعلا ،يعتبر محفوظ عندنا من كبار كتاب العربية وقصته هذه « اللص والكلاب » يعتبرها النقاد انعطافا في ادبه ، قبلهذاكتب محفوظ روايات تاريخية واجتماعية صور فيها جانبا من تأريخ مصر القديم والحديث .ويتمتع الكاتب بشعبية واسعة جدا وهو يحظى ، كما اعلم ، باحترام جميع الفئات والاطراف الوطنية ، يسارها ويمينها ، الا انه احيل على التقاعد في الاونة الاخير واتخذ من الاسكندرية ـ بعد القاهرة ـ مقاما دائما له .

سوكولوف : هل تسنم الكاتب اي منصب سياسي ؟

برهان : كما اعلم ، لا .

كالانوف : الحقيقة ان هذه الرواية لا تتصل بحياتنا اليومية اتصالا مباشرا ، ونحن في تقييمنا لاي عمل فني ننطلق بطبيعة الحال من وضعنا الشخصي وتجربتنا الادبية ايضا ، ورغم ذلك فهذه الرواية احسها تدفعنا الى الحديث عنها . هذه الرواية ترينا، الى حد ما ، ان ما حدث في البلد بعد الثورة هو ما كان قبلها . وهذا لميذكر في القصة بشكل محسوس ، بل انه ومن وجهة نظر البطل اصبحت الامور اسوأ ، فهو قد خرج من السجن ووجد ان مثاله المتجسد في رؤوف علوان قد انهار بتحول رؤوف نفسه عن مثله ، وخيانة زوجته وانكار ابنته ومتابعة المباحث له وغير ذلك. الا ان نقطة ضعف القصة في اعتقادي هي انها لم تشكل وتركب الى الحد الكافي . لا يطلب طبعامن الكاتب ان يعرض كل ما يعرفه عن بطله بل ما هو ضروري للعمل الفني فقط . سعيد يخرج من السجن وينظر فيما حوله بعيون متعطشة للحياة ، لكل شيء ، لكنه يجد في الانتظار خيانة زوجته له ، اما لماذا هذه الخيانة فهذا ما لم يعرضه لنا الكاتب . فاذا كان لهذه الخيانة مبرر تبطل احقية البطل في صراعه مع الاخرين . رؤوف ايضا يخدعه ، فاذا كان رؤوف رمزا لخيانة المثقفين لافكارهم في مرحلة ما فأين مكافىء المثقفين الشرفاء الذين لا يتنكرون لمبادئهم على الاطلاق ؟ وتدريجيا تتغير عواطف ومزاج سعيد ومعنى كل حياته القادمة يتركز في رغبته الانتقام من رؤوف وزوجته وزوجها . ماضي سعيد غير واضحلنا . وغير واضحة ايضا افكاره ومعتقداته ، يفكر سعيد ان السرقة هي الطريق الصحيح « لان ما يؤخذ بالسرقة يسترد بالسرقة » كما قال له رؤوف ، وقال له ايضا ان « التنظيم ضروري » ولكن اي تنظيم هذا ما لم يكن واضحا . يلعب رؤوف دورا كبيرا في حياة سعيد ، عرفه على عالم الكتب وعلمه مع الاخرين اطلاق النار . ولكن لاي شيء هيأهم ؟ هذا ما هو غير مفهوم لنا ايضا ، شيء ما كان يمنع الكاتب في اعتقادي من ذكر الحقيقة كاملة. وهكذا فالثورة حدثتورؤوف الذي يمثلها بنظر سعيد كان قد تغير واستحال الى ما هو غير الثورة ...

وحيد (طالب من القفقاس) : اعتقد ان روعة الكتاب في انه لم يصف كل شيء ، ولميقل لنا كل شيء ، ولعل الكاتب فعل ذلك بتركيز شديد . وان المؤلف يقف الى جانب سعيد لانه يمثل فكرة

محققة في شخص . انا قريب الى الانسان الشرقي وافهم بشكل واضح ان الانتقام قد يكون المعنى الاول والاخير لحياة فرد . يذكر الفنان اكثر من مرة واحدة انك تجد عند الشعب البسيط تعاطفا مع من يقع في ورطة ما او مصيبة ،وهذا التعاطف لا يخضع في اعتقادي لكل تحليل ، انه مجرد تعاطف انساني اصيل – نور ، طرزان –

سوكولوف : انه تعاطف طبقي ، شعور بالانتماء الطبقي ، ففراء ضد اغنياء ، تلك هي القضية .

وحيد : لو كنت مكان رؤوف لفعلت كل ما في وسعي لانقاذ سعيد، وسعيد ما كان بحاجة الى النقود مثلما كان بحاجة الى مشاركة الناس الوجدانية له ، والكاتب يقول ان لا احد يفهم سعيد، اما البطل الثاني في اعتقادي فهو الشيخ الذي صور بشكل رائع جدا ، نفهم ان تمرد الانسان مهما كان بعيدا وعنيفا فانه في مكان ما يتكيء على متكأ . وممتع جدا وضع هذين الشخصين احدهما مقابل الاخر ، سعيد يتحرك دائما في الحياة اما الشيخ فقد كان هادئا مطمئنا آمنا ، في اساس كل ما هو حي يوجد الموت ، والانسان الشرقي لا يستطيع الهرب من السؤال : الابدية !

سوكولوف : قرأت هذه القصة من غير ربطها بموضوع الثورة هناك نقائص ولكنها ليست نقائص فنية بل هي فكرية ناتجة عن اختلافي مع آراء الكاتب ، في القصة لا نجد ما تعارفنا على تسميته بالبطل الايجابي ، وكان يهمنا ان نعرف ما النموذج الايجابي عند الكاتب .

وحيد : ليس من واجب الفنان عرض النماذج ، انه يطرح فكرا وهذا من حقه ، انه يقول ان لا حق لاحد مطلقا في قتل الناس ، وان الرصاصات التي توجهها نحو الاشرار قد تطيش وتصيب الابرياء كما حدث في القصة . وان الناس يجب ان يبحثوا عما يوحدهم ، هذا ما لم يقله المؤلف الفنان مباشرة لكنك تحسه خلال مطالعتك الرواية .

كالانوف : يفترض الكاتب اسلوبين للحياة ، فمن جانب « قلق » سعيد الذي لا يقوده الى شيء . ومن جانب اخر : التسليم بالواقع الذي هو متحرك في الظاهر ولكنه ساكن في الجوهر ، يمثل هذا الجانب الشيخ . ولقاءنا الاول بالشيخ يريا انه عجوز بلحية بيضاء . وعندما نتعرف على طفولة سعيد نرى الشيخ مرة اخرى بالشكل هذا نفسه . فالشيخ هنا رمز لما هو لا يتغير والمؤلف كما ارى لا يتعاطف مع بطله سعيد قدر تعاطفه مع هذا الشيخ .

لودا سكلارينكا : من ناحية الشكل لا يجب النظر الى هذا العمل كرواية بل هي قصة اجتماعية . اما من ناحية المضمون فاجد فيها ثلاثة اساليب مختلفة للكفاح : الاول هو الثورة التي لم تغير من شيء في الواقع عمليا ، الثاني فوضوية وتمرد سعيد الفردي الذي يقوده الى الخذلان والخيبة ، الثالث هو الدين الذي يفشل في ان يكون ملجأ لسعيد وان كان هكذا بالنسبة لابيه ،اذن فهناك حاجة لاسلوب رابع ، ولكن الكاتب لا يهدينا اليه . واذا كانت الثورة ذات الطبيعة البرجوازية تفشل في تحقيق التغيير فهل تكون الثورة الاشتراكية التي تعتمد على جماهير الشعب هي البديل ؟ ذلك ما لم يقله لنا الكاتب بشكل مباشر .

جوجولوف : الشيخ من الناحية الفنية شخصية لا لون لها ولكن القصة كتبت بديناميكية . الا ان غياب المثال منها يسيء اليها . وعلى الرغم من تعاطف المؤلف مع البطل الرئيسي نقرر فشل سعيد مسبقا بحكم رغباته الانتقامية . سعيد هو شخص لم يفهم الحياة جيدا ولم يحقق فيها ما يذكر . وهذه القصة تجدها عن الانتقام اكثر من كونها قصة كفاح ضدالشرور الاجتماعية .

سميرنوف : هذه القصة مكتوبة بسرعة وهي ليست عن الكفاح ولا الثورة ، الشيخ يقول لسعيد ان يهتم ببيته لا الثورة ، وهو ليس رمزا للابدية ، بل هو الدين الذي يشغل مكانا كبيرا في التأثير على ارواح الشرقيين .

لوسا كينايفا : لا يمكن انكار ان القصة كتبت تحت تأثير الاحداث التي جاءت مع ثورة مصر . ولكني لا اعرف فيما اذا كان الصراع في الرواية نموذجا للصراع الحقيقي داخل المجتمع المصري ، وفي اعتقادي ان الكاتب ما تناول هذا الموضوع الا لتمثيله فكرة ما ، ورؤوف الخائن لا يمكن ان يكون ممثلا لثورة مصر . والفكر في اعتقادي يأتي في هذه الرواية بدرجة ثانية ،فعندما يشكو سعيد همومه الى الشيخ ويخبره انهم سلبوه كل شيء ، الزوجة والبنت والامان يجيبه الشيخ ان ما يحتاج اليه لا الحقيقة ولكن البيت ، وهذا منطقي ، وعلى سعيد ان يبحث اذن عما يهيء له هذا البيت ، واذا كانت الثورات تحدث غالبا لاجل الخبز والحرية فما هو منهج سعيد اذن ؟ لا يقول لنا الكاتب هذا .

اميل روبل : القصة اعجبتني ، تشعر فيها بالروح الشرقية، قرأتها بجلسة واحدة ، والشيخ يبرز فعلا امام العيان ، وهذا النموذج في اعتقادي نظري لا يحمل خصوصيات الواقع ، ولعله يرمز فعلا عند الكاتب الى الدين الخالص من الشوائب الارضية . يتخذ الانتقام عند سعيد طابعا فكريا ، فالقصة اذن ليست مجرد قصة بوليسية كتبت لامتاع القارىء ، انه يقول ما معناه « انني اذا قتلت فالشعب اجمعه يحزن عليّ لان كل رصاصة اطلقها هي رصاصة الشعب» فهو اذن صاحب قضية ، قضية اجتماعية ، لكن ذلك غير مبرز بشكل كاف ، وبشكل عام تجد القصة تنحو منحى انسانيا .

ايرا بكدانوفا : يستعمل الكتّاب غالبا المنلوج الداخلي المباشر وكثيرا ما تجد عندهم خلطا بين سرد الكاتب نفسه وسرد بطل قصته ، الا ان هذا الخلط لا تجده في هذه القصة ، يريد الكاتب بهذا الاسلوب ان يجعل بطله قريبا من القارىء ، سعيد شخص ضعيف ، باستثناء حبه لابنته وزوجته « قديما » . في هذا البطل لا شيء ايجابي وفي كل اخفاقاته يذنب الاخرين دائما ولا يلقي لوما على نفسه ابدا ، وهو يعتقد ان له الحق في الحكم على الناس الا انك وانت تنتهي من قراءة القصة لا تدري ما الذي اراد الكاتب ان يقوله بالضبط ، ولعله اراد ان يقول ان التمرد الفردي كائن الى الخذلان ما دام الفرد يجابه لوحده سطوة الحكام والانظمة .

كالانوف (في ختام الندوة) : فهم اي عمل فني لا يكون تاما اذا لم تكن على معرفة بتاريخ البلد الوطني. وكل منكم قال شيئا ما ممتعا بحق . وكما رأينا انالقصة هذه تعطينا القدرة على مختلف التفسيرات ، وهذا جيد ، الا ان الكاتب حاول في اعتقادي تحميل قصته هذه معنى اكبر مما قدمته لنا القصة بالفعل . فمن ألغاز القصة ان المؤلف يختار بطله كممثل لنفسه وحسب ، اي ان البطل لا يمثل نموذجا اجتماعيا هنا قدر تمثيله الشخصية الفلانية في المكان الفلاني ، فينشأ السؤال لم كتبت الرواية اذن ؟ اراد المؤلف ان يقول لنا شيئا ما جادا عن معنى الحياة على هذه الارض الخاطئة ولكنه لا يعرض لنا النقيض الايجابي ولا حتى مجرد تصور عما يجب ان تكون عليه الحياة الانسانية . طريق سعيد محكوم بالفشل منذ البدء ، ربما اراد المؤلف ان يرينا ان الانسان حر ولكن لهذه الحرية حدود ، لا يجب ان يتعداها ، كعدم التجاوز على الاخرين وعدم سلب حياة اي من الناس . كان يجب منذ اول اخفاق لسعيد ، منذ اول حدث تراجيدي اصابه عند فشله بقتل الخائن عليش وزوجته ان يفكر هل هو على حق ام لا ؟ هل ان هذا الطريق يقود الى العدالة الحقيقية ؟ لكن سعيد يستمر دون مراجعة نفسه ، ومرة اخرى يسفك دم بريء اخر ، ويتوحد ، والمقبرة في القصة تحمل

ايضا معنى رمزيا ، وهذا وحده ما يجعله مترويا متأملا . وظهور نور يتخذ كذلك معنى رمزيا ، لا مخرج ، وفي النهاية ينتهي البطل خلف السطور التي لم يذكرها المؤلف . ومن خلال الشيخ يحاول المؤلف ان يرينا طريقا اخرى الى التعامل مع هذه الدنيا ومبادىء اخرى تتحكم في الانسان . الشيخ شخصية تقليدية وليس من الضروري ان يكون ممثلا للدين ، انه يمثل عالما معينا من التأمل ، وهذه الشخصية نموذج للتعامل اللادنيوي للشخصية الشرقية مع الحياة . الشيخ شخصية معانية وهو حاضر لتقديم لا المساعدة الروحية فحسب بل والمادية ايضا وهو لا يدعو سعيد الى سقف بيته فقط بل يطعمه ايضا . يحاول الشيخ مساعدة الابن سعيد ولكنه لا يفلح لان هذين البطلين يعيشان في عالمين مختلفين . فالشيخ لا يفهم الطريق العبثي الذي يجري فيه سعيد وسعيد لا يفهم العلاقة التأملية مع الحياة ، تلك التي عقدها الشيخ بما يحيطه ، وبكدانوقا لاحظت أن القصة كتبت باسلوب السرد المباشر ، الضمير المخاطب حينا والضمير الغائب حينا آخر ، وهذا الاسلوب ، اصبح متبعا في الادب الاجنبي . نحن نحكم اذن على الكثير من الحوادث والشخصيات من خلال كلمات سعيد فهل يكفي هذا للقارىء ؟ لا . نبوية لا نراها الا بعيون سعيد ، نرىكيفتعرفا وتزوجا وعاشا ، ونحن لا نفهم ما الذي دعا نبوية الى الخيانة ، ربما هناك ما يبرر فعلتها ؟ ولذلك فالسرد من خلال سعيد ، اسلوب المخاطب ، لا يفلح ان يكون اسلوبا موضوعيا للكشف الفني . واذا كانت القصة قد اثارت حفيظة البعض فلأن الكاتب يشير الى ان كل شيء يجري ولكن لا شيء يتغير ، وبغض النظر عن كيفية حدوث التحولات في حياة المجتمع نجد ان الحياة الخاصة تستمر هنا ، في القصة ، على منوالها القديم وقوانينها الابدية ، هذا ، مرة اخرى ، ما لم يقله الكاتب مباشرة ولكن ذلك يمكن تبينه من خلال السطور . ويمكن تذنيب الكاتب في ان رؤوف ليس هو ممثل الثورة الحقيقي ، فيالثورة دائما هناك ثوار حقيقيون نظيفون ، ويظل الحكم على بعض النماذج في القصة صعبا ، فليس من السهل لنا تصور طبيعة المجتمع المصري على حقيقته ، ليس فقط مميزاته القومية بل وملامح تركيبه الثقافي ايضا . ولا اعتقد بان نموذج نور فرض من الكاتب لكي يرينا ان المعاناة موجودة فقط في اعماق المجتمع ،فقد جعل نموذجها مثاليا الى حد ما فحبها لسعيد لا يعتمد على اساس وهو بلا حدود ، ونور كامرأة وشخصية لا يطرح الكاتب من خلالها شيئا جديدا . هذه القصة ارتنا تأثير الادب الاوروبي نوعا ما ، وهذا يتضح لا من خلال تركيب القصة وحدهبل وفي التفسيرات الكثيرة التي توحيها للقارىء . القصة ككل مثيرة للاهتمام كثيرا وقد اعطتنا تصورا واضحا كاملا عن كيفية تطور الادب العربي وعن الاشواط البعيدة التي قطعها حتى أوصلته الى مواقع الواقعية الاوروبية .

موسكو

برهان الخطيب

روايات ومسرحيات مترجمة

من منشورات دار الآداب

ابك يابلدي الحبيب	آلان بيتون	العراب	ماريو بوزو
زوربا	نيكوس كازنتزاكي	الشوارع العارية	فاسكو براتوليني
انا وهو الانتباه	البرتو مورافيا البرتو مورافيا	الجحيم	هنري باربوس
		ماريانا	لوركا
مدام بوفاري	غوستاف فلوبير	هيروشيما حبيبي	مارغريت دورا
السفير	موريس ويست	نساء طراودة	جان بول سارتر
قصة حب	اريك سيفال	تمت اللعبة	» »
الموت حبا	بيار دوشين	مسرحيات سارتر	» »
الموت السعيد	البير كامو	الغثيان	» »
		دروب الحرية ٣/١	» »